

اللغة العربية في مدارس التعليم ما قبل الجامعي

مكانة اللغة العربية في بناء وتصميم المناهج والكتب المدرسية

مقدم الورقة: د. طوني غوش

لا أدعي أنني في هذه العجالة أقدم بحثاً كافياً عن مكانة اللغة العربية في بناء وتصميم المناهج والكتب التعليمية، لكنني أطرح بعض التساؤلات والأفكار التي راودتني وأنا أطلع على مختلف المناهج والكتب التعليمية في العالم العربي، خصوصاً أنني أسهمت إسهاماً متواضعاً في وضع بعض المناهج، أو في تأليف بعض هذه الكتب.

لا شك في أنّ مكانة اللغة العربية في بناء وتصميم المناهج والكتب التعليمية تتفاوت بين بلد عربي وآخر، ولكنها تبقى على العموم، دون ما ينبغي أن تكون عليه. وسأحاول في ورقتي هذه أن أتبيّن أسباب تدني مكانة اللغة العربية وسبل النهوض بها.

أولاً: أسباب تدني مكانة اللغة العربية في بناء وتصميم المناهج والكتب المدرسية

1- النظر إلى اللغة العربية كوسيلة لا كغاية

من المؤسف بل المؤلم أنّ معظم واضعي المناهج ومؤلفي الكتب المدرسية في العالم العربي، قد نظروا إلى اللغة العربية نظرة محض صرفية أو نحوية، بدل أن تكون أنطولوجية. فدراسة النحو والصرف عندهم كقيلة بأنّ تعطي هذه اللغة حقها. فإذا بالإعراب، على سبيل المثال لا الحصر، يتمدد ويتوسع ويتعمّق حتى ليكاد إتقانه يغدو إتقاناً لهذه اللغة. والمؤسف أنّ دراسة النحو والصرف لم توظّف غالباً في فهم هذه اللغة

والتعبير بها، فضلاً عن سائر الفروع المتشعبة لهذه اللغة. هذه الفروع التي هي، في مثل هذه الحالة، أشبه بأغصان الشجرة التي تُفصل عن أمّها بمنشار عدم النظرة إلى اللغة كوحدة لا تتجزأ، فتبيس وتُلقي في نار النسيان واللاجدوى. واللافت أنّ معظم مقدّمات الكتب المدرسية تشير إلى وحدة اللغة، إلا أنّ هذه الإشارة تبقى في المستوى النظري لا العملي. غير أنّ محاولات الخروج من هذه الدّوامة التقليدية بدأت والحمد لله تبصر النور في بعض الدول العربية.

أضف إلى ذلك أنّ اللغة العربية التي يفترض أن تكون كينونة الإنسان العربي وصيرورته، لم تبلغ أن تكون لسانه، بمعنى أنّ التعبير باللغة الفصحى يكاد يكون معدوماً لدى المعلّمين والمتعلّمين. فما مصير لغة لا تكون على الأقل أداة تواصل بين أبنائها؟ فلو اخترنا طلاب الصفوف الثانوية لا المتوسطة أو الابتدائية في معظم المعاهد العربية، لتبيّن لنا أنّ معظمهم لا يحسن التواصل باللغة الفصحى شفهيّاً أو كتابيّاً. أليس هذا الأمر مدعاة قلق؟ فاللغة الأم لا تطمح أن تكون تعبيراً عن الذات فحسب، بل عبوراً بالذات إلى الآخر. ألا يؤدي إذاً فشل التعبير أو العبور إلى الانطواء والتشردم والغياب؟ ألا يهدّد هذا الأمر الإنسان العربي في صميم كيانه ومصيره؟

2- طغيان النزعة الماديّة

في مجتمعاتنا العربية، وتحت ضغط الحياة المعاصرة، وتكاليف العيش الباهظة، ولمعان الرفاهية الوافدة من الغرب، بدأت النزعة الماديّة تتفشى فينا. فإذا بالتخصص في الفروع العلمية كفيل إلى حدّ ما، بتأمين مستقبل أولادنا، فيما التخصص باللغات، ولاسيما اللغة العربية منها، لا يعطي الثمار الماديّة المرجوّة. ذلك أن أسواق العمل مفتوحة لرجال

العلم لا الأدب أو الفن الرفيع. ففي غياب تذوق الجماهير العربية عموماً للإبداعات الأدبية والفنية، وانحطاط ذوقها إلى أدنى الدرجات، بتأثير خاص من وسائل الإعلام المرئية على وجه التحديد، وبسبب تقاعس الأنظمة العربية عن التشجيع والدعم وخلق مجالات العمل، بات المبدعون بدورهم متقاعسين، محبطين، وبات تالياً الإقبال على اللغة العربية الخيار الأخير للطلاب، أو المنفذ الوحيد المتبقي لهم بعد أن تسدّ في وجوههم سائر المنافذ.

3- الشعور بالدونية في إتقان اللغة العربية، وبالتفوق في إتقان اللغة الأجنبية

في بعض الدول العربية ومنها لبنان والخليج العربي، بات المتخصّص باللغة العربية يشعر بالدونية إزاء زميله المتخصّص باللغة الأجنبية. وما هذا الشعور سوى انعكاس لنظرة الإنسان العربي إلى الغرب وحضارته المهيمنة والمتفوقة بحسب رأي معظم الشبان، كأنما الحداثة حكر على اللغة الأجنبية لا العربية، وكأنما لغتنا هذه عاجزة عن مواكبة الحضارة العالمية والإسهام فيها.

4- تراجع نزعة العروبة

لا يخفى عن أحد أنّ نزعة العروبة آخذة في التراجع منذ البداية السبعينات من القرن الماضي، وبالتحديد منذ وفاة القائد العربي جمال عبد الناصر. وطبيعي أن ينعكس تراجعها هذا على مكانة اللغة العربية، وسوف يستمرّ ما لم تتدارك الدول العربية هذا الأمر تداركاً عملياً لا نظرياً. فمعظم مناهج هذه الدول تدعو إلى تعزيز مكانة اللغة العربية، إلا أنها لا تترجم هذا التعزيز إلى أفعال ميدانية مثمرة، وإلى إجراءات عمليّة ملموسة.

والمؤسف أنّ اللغة العربية الفصحى آخذة بدورها في التفكُّك، حتى باتت بعض مفرداتها وتراكيبها تختلف بين دولة عربية وأخرى؛ ولا غرو في ذلك، فأين المجمع اللغوي العربي الواحد، لا المجامع المتعدّدة؟ وأين فاعليّة؟ وأين مراكز الأبحاث اللغوية؟ وأين القواميس الموحّدة موادّ ومصطلحات، والممهورة بختم مجمع لغويّ واحد؟ وأين الموسوعات العربية التي تضاهي الموسوعات الأجنبية جودةً؟

وإذا اطَّلعنا على الكتب المدرسية العربية، لتبيّن لنا أن تعزيز النزعة الإقليمية يكاد يكون على حساب النزعة العربية. فتمتية روح الانتماء إلى الوطن الصغير ضرورية شرط أن تعزز الانتماء إلى الوطن الكبير.

5- مزاحمة العامية للفصحى

تُعدّ مشكلة الازدواجية في اللغة العربية، على حدّ قول الدكتور محمد راجي الزغلول (الأردن)، من أهم المشكلات اللغوية التي تواجه الوطن العربي، وبخاصّة من النواحي الاجتماعية والنفسية والتربوية. ولطبيعة هذا الموضوع الحساسة من الناحيتين القومية والسياسية من جهة والدينية من جهة أخرى، فإنّه لم يلق عناية موضوعية كافية، أو بحثاً مستفيضاً في ضوء الدراسات اللغوية المعاصرة، بخاصة التطوريّة والمقارنة منها. وهكذا يبقى الكثير مما كتب ردود فعل آنيّة أملتها انتماءات ومصالح مختلفة أكثر مما أملاه البحث الموضوعيّ الجادّ في العالم العربي.

وفي هذا الإطار يتوقع "فيرجسون" أنّه في حدود عام 2150 ستكون في العالم العربي مجموعة من الأنماط اللغوية التي يتركز كل منها على إحدى العاميات مع مزيج من مفردات الفصحى، أولها العربية المغربية، وثانيها المصرية، وثالثها المشرقية في بغداد ورابعها المشرقية في سوريا. وقد يكون هناك نمط آخر في السودان.

لا نستطيع أن نجاري هذا الباحث في توقعاته، ولكننا في الوقت عينه لا يجوز أن نعول على العامل الديني وحده في الحفاظ على هذه اللغة، خصوصاً بعد أن أخذ العامل القومي يضعف تدريجياً. صحيح أن الاعتقاد بقدسية اللغة العربية الفصحى قد أثر تأثيراً واضحاً في اتجاهات العرب نحو لغتهم، ولكن العامية - وأكاد أقول اللغات الإقليمية العربية العامية - آخذةً تدريجياً في منافسة الفصحى، تدعمها أصوات من هنا وهناك داعية إلى تبنيها رسمياً لأسباب واعتبارات مختلفة.

والسؤال المطروح هنا هو الآتي: إذا كان وضع الازدواجية طبيعياً في معظم لغات العالم، فلماذا يكون هذا الوضع غير طبيعي أو عائقاً للتقدم في البلاد العربية، على حد قول دكتور الزغلول؟

6- عدم تخصيص حصص كافية في المناهج الرسمية لدراسة اللغة العربية

أنا مع الإقبال على تعلّم لغة أجنبية أو أكثر، شرط ألا يكون ذلك على حساب اللغة العربية الفصحى. فكل المناهج العربية لا تخصص للغة العربية، ولا سيما في الصفوف الابتدائية والمتوسطة، الحصص الكافية. ففي لبنان مثلاً، خُصّص للغة العربية سبع حصص في الصفوف الابتدائية، وفي بعض دول الخليج أقلّ من ذلك، بل إن بعض المدارس في لبنان لا تُدخل اللغة العربية في صميم برامج صفوف الروضة. ثم إنّ تعليم الطالب أكثر من لغة أمر يحتاج إلى مزيد من من الدرس والبحث على المستوى التطبيقي. ففي رأيي، يجب ألا يتعلّم الطفل في سنواته الدراسية الأربع الأولى، إلاّ لغته العربية، ثمّ يباشر بعد ذلك بتعلم لغة أجنبية أولى، على أن ينتقل بعد أربع سنوات إلى تعلّم لغة أجنبية ثانية، إذا ما ارتأى القيّمون عليه تعليمه لغتين أجنبيتين.

وما يدفعني إلى هذا القول فشل نظام تعليم اللغات في العالم العربي عموماً. فكم طالباً عربياً في الصفوف النهائية يتقن اللغة الأجنبية؟ بل كم طالباً يتقن اللغة العربية؟ ألا تحثنا هذه النتائج الواقعية المخزية على إعادة النظر في عملية تعليم اللغات عموماً؟ ألا ترهق المناهج التربوية الحالية المتعلم الصغير والمتوسط والكبير بما لا طاقة له على تحمّله؟

7- عدم استجابة بعض المناهج العربية لمستوى المتعلم الفكري والنفسي والاجتماعي

والعاطفي

هل تعلم المناهج العربية الطالب كيف يفكر، وكيف يبدع؟ هل تؤهله فعلاً للحياة. بعض المناهج تُركّز في مهارات التفكير لدى المتعلم، لكن التطبيق يبقى شبه معدوم. بعضها الآخر - ولا أقول كلّها والحمد لله- لا يعدّه للحياة، كأنما المدرسة جزيرة معزولة عن المجتمع.

بعضها يرهقه بأهداف يصعب تحقيقها، لأنها لا تتناسب مستواه الفكري؛ كأن يقحم، مثلاً، الحال والاستثناء في الصفوف الابتدائية. صحيح أنّ هذا البعض لا يتوخى التعمق في الدراسة، ولكن بعمله هذا، يمعن في حشو المتعلم وإرهاقه، بدل أن يعتمد المحاكاة سبيلاً إلى تعلم اللغة العربية في هذه المرحلة.

بعضها يضع المتعلم في مواقف نفسية واجتماعية وعاطفية لم يختبرها بعد.

8- الافتقار إلى التحديث

تفتقر بعض المناهج العربية إلى التحديث على المستويات الآتية:

أ- مهارات التفكير كالاستقراء والاستنتاج والتعليل والتحليل وإبداء الرأي، وتحديد الأولوية، واتخاذ القرار وسواها... واللافت على هذا الصعيد، طغيان الأسئلة الآلية الأوتوماتيكية التي تنشط الذاكرة فقط، كأنما المطلوب من المتعلم استرجاع النص، أو بتعبير آخر، استهلاك ما ينتجه سواه، وصولاً إلى مجتمع استهلاكي بامتياز.

ب- ربط اللغة العربية بالحياة والعصر: بعض المناهج تفرض على الطلاب نصوصاً عربية تراثية يمجّها ذوق المتعلم في القرن الحادي والعشرين. مع العلم أنّ تراثنا العربي غني بالنصوص الخالدة والقادرة على مواكبة العصر والاستجابة لذوق المتعلمين، ولمختلف مستوياتهم الفكرية والاجتماعية والنفسية والعاطفية...

ومن وسائل ربط اللغة بالحياة، جعل العربية أداة تواصل، والتعبير بها عن مختلف حاجات الإنسان المعاصر. ولست أدري كيف استقرّ في أذهان الناس هذا المفهوم الخاطيء والقاضي بأن اللغة العربية الفصحى هي لغة الإبداع والإنشاء فقط، ولا يمكنها تالياً أن تقوم بأي دور وظيفي. إنه لمفهوم مغلوّط بالطبع، فاللغة العربية لغة الحياة، لغة التعبير عن أبسط حاجات الإنسان وأدقها وأهمها في آن. ومشكلة التواصل بها في بعض المجالات لا تكمن فيها، بل في الإنسان العربي عموماً، هذا الإنسان الذي يكتفي إلى الآن بأن يستهلك ما ينتجه سواه، من دون أن يبدع أو يسعى إلى الإبداع. فالتلفزيون -مثلاً- سمّي تلفزيوناً لأنّ مبتكره أجنبيّ، ولو كان عربياً لأعطاه اسماً عربياً. فالمشكلة تُحلّ ظاهرياً بتعريب بعض المصطلحات الأجنبية، وجوهرياً بالإنتاج والابتكار والاختراع.

وهكذا، فربط اللغة بالحياة يعني - فيما يعنيه - نهل الجيد من التراث والتطلع إلى الإبداع في المستقبل. فلغتنا العربية مهددة بالتلاشي ما لم نمدها بمقومات الصمود والبقاء ثم التخطي والارتقاء.

ج- أمّا طرائق التعليم، فلا تزال تفتقر في العالم العربيّ عموماً إلى مزيد من التحديث. فالطريقة تعني جملة الوسائل المستخدمة للوصول إلى الهدف المنشود. ولا أغالي إذا قلت إنّ معظم معلمي اللغة العربية ما زالوا يقلّدون في تدريسهم الطريقة التي اعتمدها معلّموهم يوم كانوا على مقاعد الدراسة. وما أبعدهم عن الطرائق الحديثة الناشطة كالتعلّم بالحاسوب، والتعلّم المبرمج والمشغل

workshops، واستدرار الأفكار أو العصف الذهني، والتعلّم التعاوني وسواها...

ثمّ إنهم بمعظمهم لا يحفّزون المتعلّمين ولا يحسنون توجيههم نحو الهدف المنشود. فإنّ المعلّم الذي يساعد طلابه على الإقبال على العلم وعدم النفور منه، وأين المعلّم الذي يثير اهتمام التلاميذ بموضوع الدرس؟ وأين المعلّم الذي يوفر لتلاميذه ظروفاً تساعد على حصر انتباههم في الموقف التعليمي - التعلّمي وما يجري فيه من أنشطة؟ وأين المعلّم الذي يعزّز إسهامات تلاميذه الإيجابية في الأنشطة دون ترك تأثيرات سلبية في نفوس بعضهم؟

9- تدني مستوى بعض الكتب التعليمية في العالم العربي عموماً

لا يزال الكتاب المدرسيّ في العالم العربي عموماً أهمّ وسيلة لتنفيذ المنهاج وتحقيقه. وليست الحال كذلك في كثير من مدارس العالم المتقدّم. فهناك مدارس، على حد قول الدكتور محمد الحاج خليل، تعتمد صحائف العمل المخطط، أو خطط المشروعات

الكاملة، أو الأشرطة المسجلة المسموعة والمرئية، أو مكتبة المدرسة بمراجعتها وقصصها ونشراتها ودويّاتها المختلفة.

وعلى الرغم من أنّ الكتاب المدرسي العربيّ قد تحسّن كثيراً في السنين الأخيرة شكلاً ومحتوى، وبات يعكس إلى حد بعيد كثيراً من التطورات التي يشهدها حقل التربية وعلم النفس التربوي، فإنّه لا يزال عموماً دون المستوى المطلوب، وذلك للأسباب الآتية:

أ- فقدان التنافس: بعض الأنظمة العربية تفرض على جميع المدارس كتاباً مدرسياً واحداً قد يكون جيّداً أو غير جيّد، لكن في غياب التنافس، تبقى الحاجة إلى الأجود مطلباً ملحاحاً.

ب- نظرة بعض المؤلفين إلى اللغة العربية كوسيلة لا كغاية: قد وضحنا هذه الفكرة سابقاً، ونكتفي هنا بالقول إنّ على مؤلفي الكتب المدرسية العربية أن يتهيّبوا قبل الإقبال على التأليف، لأنّ اللغة العربية هي الإنسان العربي بماضيه وحاضره ومستقبله، وأي خلل في التأليف ينعكس سلباً على شخصية الإنسان العربي، وعلى كينونته وكيانه ومصيره.

ج- محدودية ثقافة بعض المؤلفين التربوية: تعاني معظم دور النشر في العالم العربي من الحاجة إلى مؤلفين مدرسيين ناجحين تتوافر فيهم الميزات الآتية:

- الموهبة والقدرة على الإبداع.
- التمكن من اللغة العربية.
- التعمّق في التربية وفي علم النفس التربوي.
- الاطلاع الكافي والوافي على النتاج المدرسيّ العالمي ولا سيما على أجوده.
- القدرة على تدوين المستجدات التربوية الوافدة في الكيان العربي الخاص.

فغالباً ما نفع على كتب مدرسية عربية تقليدية جداً، أو غير تربوية أو ذات أسلوب ركيك، أو ذات لغة غير مناسبة للمتعلم، أو ذات إخراج فني غير مقبول... وغالباً ما نفع على كتب مدرسية ليست عربية قلباً وقالباً، بل إنها كتب مدرسية أجنبية بلغة عربية.

وعليه، فإنّ الكثير من الكتب المدرسية العربية غير منسجم مع معطيات التربية الحديثة ومكتشفاتها المستجدة المتصلة بالعملية التعليمية- التعلمية، ومع طرائق التفكير لدى المتعلمين، ومع الأصالة العربية المنشودة ، والاستجابة التلقائية لطبيعة الطالب العربي وخصائصه.

د- الخروج على المناهج الرسمية جوهرياً لا شكلياً:

من يقابل بعض الكتب المدرسية العربية بالمناهج التي بُنيت عليها يجد أن مؤلفي هذه الكتب قد حادوا كثيراً عن روح هذه المناهج وجوهرها، إمّا لعدم فهمهم المعايير والأهداف والكفايات والنواتج المطلوبة، أو لعجزهم عن تطبيقها في دروس واضحة، أو لكون هذه المناهج قد صيغت بلغة غامضة أحياناً، يصعب فهمها. وغالباً ما تُشوّه هذه المناهج في أثناء التطبيق، بحيث يضيع القصد منها في الكتب المدرسية.

هـ- الافتقار إلى التصميم والتخطيط والتتابع والتكامل على مستوى المراحل كافة:

نادرة هي سلاسل الكتب المدرسية الي بُنيت على خرائط المدى والتتابع. كأنما كل صف دراسي هو مستقل عن سواه، وكأنما كل مرحلة دراسية هي مستقلة عن سواها. فلا تتابع أو تسلسل بين كتاب وآخر في مرحلة دراسية واحدة أو بين المراحل كافةً، ولا تعاضد للأهداف في سبيل تحقيق الكفايات المطلوبة. وأنت قلماً تجد خطأ متصاعداً نامياً في كتاب الصف الواحد، أو من كتاب الصف الواحد في إحدى المراحل إلى كتاب الصف الثاني فالثالث في المرحلة عينها، أو من كتب المرحلة الأولى إلى الأخيرة.

و- عدم توافر خصائص الكتاب المدرسي الجيد في معظم هذه الكتب:

من الأدلة الإضافية على ذلك:

- النقص في المعلومات الحديثة.
- عدم التدرّج في عرض المادّة.
- عدم تحديد الأهداف.
- عدم توظيف فروع اللغة، كالنحو والصرف والإملاء والبلاغة، لفهم هذه اللغة وتدوقها والتعبير بها.
- عدم اشتمال الكتاب، عقب كل وحدة دراسية، على مجموعة من الأسئلة الاختبارية.
- افتقار الكتاب إلى التقويم.
- عدم مراعاة الفروق الفردية في الأنشطة: أنشطة الدعم وأنشطة الإثراء.
- عدم تقديم المؤلفين إلى المتعلّمين مجموعة مساندة من الحقائق والأفكار المتمثلة أحياناً في نصوص ووثائق وخرائط وأشكال ورسوم بيانية.
- عدم توافر كتاب معلّم جيد.

- عدم ملاءمة لغة الكتاب للواقع الثقافي والاجتماعي للمتعلمين.
- عدم انسجام أسلوب عرض الكتاب مع طرائق التدريس المقررة في الكتاب.
- الافتقار إلى الموضوعية، والتشويق، وتشجيع الدراسة الذاتية، والرجوع إلى المصادر والمراجع الأخرى.
- عدم انسجام تنظيم المادة مع أسس النمو والتعلم.
- النقص في الوسائل والأشكال التوضيحية.
- عدم الاهتمام بالمعلومات الواردة في كتب المواد الأخرى.

ثانياً: سبل النهوض باللغة العربية

1-تحديث المناهج تحديثاً مبنياً على أفضل المستجدات التربوية المختلفة، وملائماً للمتعلم العربي:

أ- الانطلاق من التجدر في التراث والإفادة من أحدث ما توصلت إليه التربية في العالم.

ب- مراعاة المناهج للطرق الناشطة في تدريس العربية ولا سيما التعلم الذاتي، والبحث والعمل التعاوني... والتحفيز بالانطلاق من حمل المتعلم على تحسُّس الإشكالية، فألى تحديدها، ثم إلى اقتراح الحلول لها معتمداً على مهارات التفكير المختلفة.

ج-توحيد المصطلحات التربوية وتحديد الفارق بين الأهداف والمعايير والنواتج والكفايات بدقة لا لبس فيها.

د- اختيار النصوص القديمة والحديثة التي تتلاءم ومستويات المتعلم الفكرية والنفسية والعاطفية والاجتماعية في مختلف حلقات الدراسة.

هـ- مراعاة وحدة اللغة وعدم دراسة النحو والصرف والبلاغة والعروض على حدة، بل من خلال النصوص، بغية إبراز وظائفها المختلفة في فهم اللغة وتدوِّقها والتعبير بها.

و-الإفادة في دراسة اللغة من المعطيات النقدية اللغوية والأدبية والألسنية القديمة والحديثة، كالأنماط النصية، ومصادر الإيقاع المتنوعة، ومستويات النص المختلفة: الصوتي والمعجمي والدلالي والتركيبى والبنائى.

ز- التركيز في التعبير الشفهي بمختلف أنواعه وأشكاله ووضعياته.

ح- التركيز في تقنيات التعبير الكتابي، وفي دور اللغة العربية الوظيفي لا الإبداعي فقط، واقتراح وسائل وطرائق مختلفة لتعزيز هذا التعبير.

ط- جعل المطالعة الحرّة والموجهة في صميم المنهج الدراسي.

ي- تسهيل هذه اللغة وتبسيطها مع المحافظة على أصالتها وجوهرها.

ك- صياغة المناهج الرسمية بلغة واضحة دقيقة مفهومة، وإعطاء الأمثلة التطبيقية

على كل بند منها.

2- ربط اللغة العربية بالحياة، وإشعار المتعلمين بأهميتها الكينونية والمصيرية، وبالحاجة

إليها على مختلف المستويات، وفي جميع المواقف الحياتية.

3- تخصيص المزيد من الحصص في الأسبوع لدراسة اللغة العربية.

4- فسح المجال للتنافس في تأليف الكتاب المدرسي.

5- عدم توظيف الكتاب المدرسي لخدمة النظام القائم.

6- إخضاع المؤلفات المدرسية، ولا سيما العربية منها، لمعايير تقويم تربوية واضحة

وصارمة وشاملة. فحرية التأليف المدرسي لا تعني الحق بوضع كتب مدرسية ذات

مستوى متدنّ بين أيدي المتعلمين.

7- تعيين لجان تقويم من ذوي الاختصاص والخبرة والنزاهة والتجرد:

مهمة هذه اللجان تقويم الكتاب المدرسي المعروض عليها والحكم عليه وفقاً لمعايير

علمية محددة، ثم السماح بنشره أو عدم نشره. مع الإشارة إلى أنّ بعض الدول العربية

قد عينت مثل هذه اللجان، إلا أنّ المعايير التي تستند إليها في حكمها على المؤلفات

المدرسية تتفاوت في جودتها بين بلد عربي وآخر. فهي في قطر- مثلاً- دقيقة،

متطلبة، صارمة، وهي في لبنان محدودة تكتفي بمطابقة الكتاب المدرسي للمنهج

الرسمي، ولا تحول تالياً دون نشر كتاب مدرسي سيء.

8- فرض تدريس اللغة العربية في مختلف الصفوف، ولا سيما في صفوف الحضانة، على

المدارس الخاصة التي تضم طلاباً عرباً.

9- تخفيف الضغط على المعلم: هذا الضغط الناتج من الصراع بين رغبته في الإيفاء بمتطلبات المهنة وبين وجود معوقات ذاتية أو بيئية أو مدرسية لا تساعد على هذا الإيفاء. ولا شك في أنّ المناخ المدرسي بحسب كيرياكو وسوتكليف حين يتصف بالديمقراطية، يسهم إسهاماً فعالاً في التغلب على معوقات تنفيذ المعلم لمهام المهنة. وبهذا يصل المعلم إلى حالة الرضا التي تنعكس إيجابياً على الأداء، بالإضافة إلى علاقته بزملائه وبتلاميذه، وكل ذلك لصالح العملية التعليمية (الإدارة التربوية في البلدان العربية- الهيئة اللبنانية للعلوم التربوية).

10- تخفيف الضغط على المتعلم: لا يتحقق هذا التخفيف إلا في مناخ تربوي ديمقراطي، لا تلجأ فيه الإدارة أو المعلم إلى محو شخصية المتعلم والنيل من كرامته والنظر إليه كرقم بين أرقام... فالعلاقة بين المعلم والمتعلم يجب أن يسودها الاحترام المتبادل، والتشجيع الدائم، والترغيب بالمادة، ومراعاة الحقوق والواجبات، وتحمل المسؤولية، وتقدير المبادرات الفردية، واحترام الرأي المغاير وسواها من الأمور الكثيرة التي يحول ضيق المجال دون ذكرها هنا.

11- فتح اختصاص جامعي بالتأليف المدرسي ولا سيما باللغة العربية: قد يستغرب البعض هذا الطرح لوجود الكثير من المعاهد والجامعات العربية التي تعنى بالتربية بجميع فروعها. إلا أننا نرى أنّ التأليف المدرسي، ولا سيما بجانبه التطبيقي، يحتاج إلى تخصص مستقل يفرض على المرشحين أن يكونوا من حملة الشهادات العليا في مادة التأليف، ويتطلب دراسة عامة في التربية، ثم دراسة أرصدة ومقررات خاصة بالتأليف المدرسي.

12- الحد من مزاحمة العامية للفصحى:

من أجل تحقيق هذا الغرض ينبغي أن يتحدّث المعلمون في الصف باللغة الفصحى، وأن يحثوا التلاميذ على التواصل بها. كما يجب تشجيع المطالعة، وإنتاج أفلام تربوية بهذه اللغة، فضلاً عن البرامج والألعاب التربوية والمسرحيات وسواها.

ينبغي أيضاً عدم محاكاة أساليب اللغات الأجنبية في أثناء التعبير باللغة الفصحى. فغالباً ما يكتب طلابنا ومعلمونا وصحافيّونا بل وبعض أدبائنا بلغة عربية المفردات أجنبية التركيب والنظم، على حد قول أنور الجندي.

وبما أننا لا نستطيع عزل المتعلم عن وسائل الإعلام التي تستخدم العربية بتركيب أجنبي، فقد بات لزاماً على الدول العربية مراقبة وسائل الإعلام على هذا الصعيد، للحدّ من التراكم الخاطئة والأساليب الأجنبية، والأخطاء اللغوية الشائعة وغير الشائعة.

13- التشجيع على الأبحاث العلمية باللغة العربية الفصحى.

14- تخصيص برامج تربوية للأطفال والأحداث باللغة العربية الفصحى تُبثُّ على الشاشات، وتكليف المتعلمين مشاهدتها والتعليق عليها.

15- العمل على محو الأمية المتفشية في العالم العربي.

16- تدريب المعلمين العرب:

لا شك أنّ جميع الاقتراحات السابقة لن تحقق الأهداف المرجوة منها إلا إذا تيسر للغة العربية معلمون من ذوي الكفاءة المميزة. وقد أتاحت لي بفضل شركة "GEOPROJECT"

فرصة الدخول إلى بعض المدارس في غير بلد عربي، ومشاهدة الدروس، والاحتكاك المباشر بالمعلمين، فعدت بانطباع مؤلم للغاية، إذ إن أداء معظم هؤلاء المعلمين كان دون المستوى المطلوب لأسباب أبرزها:

- أ- عدم التمكن من العربية.
- ب- عدم التواصل بهذه اللغة في العمل التربوي، وجهل أنواع الاتصال والتواصل في التربية.
- ج- سوء استخدام الكتاب المدرسي.
- د- الوقوع في سجن الكتاب المدرسي والعجز عن التقلت من قبضته للإفادة من مصادر أخرى.
- هـ- التعليم التقني والوعظي، وغياب الطرائق الناشطة، ولا سيما التعلم الذاتي والعمل التعاوني، وتنمية القدرة على التفكير لدى التلاميذ، فضلاً عن الدخول المباشر في الدرس دون تهيئة أو تحفيز أو ترغيب.
- و- التقويم التقليدي.
- ز- كبت المتعلمين والتعاطي معهم بفوقية وديكتاتورية موجعة.

من هنا أرى أن جميع الجهود المبذولة لرفع مكانة اللغة العربية ستذهب هباءً ما لم تسارع الدول العربية إلى تأهيل هؤلاء المعلمين تأهيلاً مستمراً، وإلى إنشاء دورات تدريبية فاعلة ومتلاحقة، وإلى فرض معايير صارمة على المرشحين لتعليم هذه اللغة.

ولا ينجح تدريب المعلمين إذا لم يكن الإداريون في المدارس مدربين خبير تدريب. فمدير المدرسة الذي تلقى تدريباً على مهارات القيادة لا بدّ من أن يتمتع بروح الإيجابية، وأن يكون بناءً في علاقته بالهيئة التعليمية، وأن يشجّع تالياً أفراد هذه الهيئة على التدرّب، وعلى تطوير الذات باستمرار، حتى يكتسبوا الاستراتيجيات التي تعالج المشكلات الأكثر تكراراً، فضلاً عن اكتسابهم تقنيات طرح السؤال، وسائر عناصر الطرائق الناشطة كالتعاون والاكتشاف والتجريب...

ولا أظن أنّ العامل الاقتصادي يحول دون هذا التأهيل، لأنّ الهدف المنشود هو أسمى مما نتصوره، فهو يمس الكينونة والمصير.

وختاماً أرى أنه إذا أردنا أن نكون عرباً عن حق، فعلينا أن ندرك أهمية لغتنا الأم. فهي - كما قلت مراراً - ليست لسان العربي فحسب، بل هي الإنسان العربي نفسه. هي الهوية، هي الماضي والحاضر والمستقبل. وعلينا المحافظة عليها لكي نحافظ على أنفسنا، لئلا نضيع في التيارات التي تهب علينا من كل حذب وصوب. وإذا ما تقاعسنا عن هذه المهمة السامية، فإنّ الأجيال القادمة لن ترحمنا. لا لن ترحمنا!

د. طوني غوش